

صور إنسانية من الحياة اليومية والأسرية في بلاد الشام خلال الألف الأول ق.م*

محمد حرب فرزات

أيها السيدات والسادة ،

أستميحكم العذر اذ أنتقل بكم أيها السيدات والسادة ، بعد الكلام الحي والأدب الرائع البليغ ، الى جانب من الأدب في عصر قديم ، أو الى اركيولوجيا الأدب جاهداً تقريبه منا أو محاولا الاقتراب منه ونحن نبحث عن بعض السمات الانسانية في حياة الناس وأعمالهم في تاريخ حضارتنا الغابرة . وانه ليسرني أن أسهم في هذه الندوة العلمية بهذا البحث الذي أود أن أتناول فيه بعض الملامح في صور إنسانية من حياة الأسرة الشامية في عصر من عصور تاريخنا البعيد وهو العصر الآرامي ، من أجل التعرف على أحوال بعض أولئك الناس من الذين عاشوا قبلنا في هذه الديار : حرثوا أرضها وأنبتوها ، وعمروها وزانوها ، ودفعوا أعداءها عنها وسعوا في مناكبتها وجدّوا ، وشقوا وسعدوا ، وفرحوا وحزنوا ، أقاموا رداً في أبراج وقصور مشيدة وملكوا البيوت العامرة ألحبة أو عاشوا في مساكن بسيطة أو تحت الخيام ، ثم مضوا لم يبق من أثر بعضهم ولا قبر ، ولكن خلد لبعضهم بعد زمن طويل طيب الذكر . انها روعة الزمن ، كما يقول المؤرخ الفرنسي ميشله ، أروع ما يزين الانقراض ويجعلها جميلة !

هذا بعض ما كان يجول في الذهن وأنا أدير التفكير في موضوع هذا البحث الذي قد تقود الأمور الصغيرة فيه الى التأمل في المسائل الكبيرة ، فأسائل النفس كيف كان معاش أولئك الناس ، وكيف كانوا يواجهون أعباء الحياة ؟ لقد عانوا قبلنا بقرون : همّثوا وأهمّثوا ، وسكنوا ورحلوا ، وسافروا وهاجروا ، واطمأنوا واضطربوا ثم صمتوا أخيراً

* معاضرة أقيمت في الندوة الرابعة للسمات الانسانية للعلم والعمل في بلاد الشام في ١٠/٤/١٩٨٥ . ونوقش موضوعها في جمعية البحوث والدراسات باتحاد الكتاب العرب في ٢/١١/١٩٨٥ .

الى الأبد! كيف يمكن بعد ردم الفراغ في رسم التاريخ، كيف يمكن إعادة الحياة الى ما تغلّت عنه الحياة؟

هؤلاء المغادرون الغابرون هم بالأصل من أرضنا ومن بدو باديتنا ومن أهل جزيرتنا العربية قبل أن يستقروا في الحواضر وينشئوا الممالك والدول . كانوا ينطقون بلغة لم تعد لغتنا الدارجة منذ أن أضحت العربية الشمالية الفصحى لغة بلاد العرب . ولكن تلك اللغة القديمة وان أضحت لغة الموت بعد أن ظلت طويلا لغة العمل والحياة ليست في نطقها ولا في بنيتها غريبة تماماً على أسماعنا لأنها لغة شقيقة للغتنا العربية ، تفرعتا معاً من أرومة واحدة وتشققتا من أصل واحد .

لقد وصلت الى أيدي المختصين منذ زمن قريب بعض كتاباتهم وخطوطهم فعادت الى الأسماع أسماء البعض منهم بعد أن طُمست . وها هي رسائلهم وأوراقهم الخاصة وهي بالئات وثائق ناطقة بين أيدي الدارسين فهل نستطيع أن نستنطقها لنستخرج منها صوراً من الحياة اليومية والأسرية في بلاد الشام في الألف الأول ق.م ؟ أي قبل أيامنا هذه بأكثر من ألفي عام ؟ هذه هي مهمة الباحث في التاريخ الذي يكون عليه أن يهب لكتابة الملحمة التي صاغ فصولها الراحلون الغائبون الصامتون ، يستحضرهم ، يعايشهم ، يعي وينظر ، يأخذ ويسقط ، يبعث ويدفن ، ثم ينقل أخيراً المعاشية والمعاناة والنظر والتجربة بصدق وأمانة الى الأجيال . فهل للكلام القديم المسطور والمنقوش أن يخبرنا بخبر الماضين وأن يروي لنا من حديث الأولين ؟

١ - في المصادر :

ان الباحث في الحياة الاجتماعية في بلاد الشام عامة وفي تاريخ تلك المرحلة من العصور القديمة خاصة يواجه في بحثه جملة من الصعوبات ليس من السهل تجاوزها ، أهمها ندرة المصادر الأصلية التي يمكن اعتمادها . فبعد أن فقد معظم الأدب الكنعاني - الآرامي ، أدب سورية القديمة الذي لا بد انه كتب في تلك الأيام أي في الألف الأول ق.م ، كما كتب الأدب العبري المعاصر له بصورة منظمة ، لم يبق من المصادر المباشرة لمثل هذا البحث سوى أسفار العهد القديم التي تلتزم بكتابة التجربة التاريخية والروحية لواحد من المجتمعات القديمة من جهة ، كما تعكس كثيراً من أحوال المجتمعات الأخرى المجاورة والمعاصرة من جهة ثانية .

وهكذا فان هذه الأسفار هي بنظر الدارس الباحث وثيقة تاريخية يمكن الاستشهاد والاعتداد بها ، ويمكن له أيضاً استنطاقها ومقاربتها بغيرها لاستطلاع الحقائق المنشودة منها . ولكن كيف تكون هذه الأسفار مصدراً تاريخياً لموضوعنا الذي نود الحديث عنه .

لقد أدى تقلب الأحوال وتعاقب الأحداث الى تغييب صور باهرة من الماضي التليد لهذه البلاد في جوف الأرض حتى أطبق عليها صمت استطال قروناً . ومن المراحل الفاصلة في تاريخها تلك الأحداث التي وقعت في الثلث الأخير من الألف الثاني ق.م ، وأدت الى تغيير كلي وعميق لوجه المنطقة : تراجع فراعنة مصر عن سورية وفلسطين أمام هجمات عنيفة

ومتتابعة لشعوب البحر القادمة من بحر ايجه . وسقطت الامبراطورية الحثية التي كانت تشكل احدى كفتي الميزان الناظم للتوازن الدولي . وتعرضت المدن الكنعانية الكبرى على الساحل السوري للدمار والخراب وأبرزها أوجاريت مدينة التجارة والحضارة والثقافة وحاضنة التراث الكنعاني المكتوب . وكانت ابلا قد غابت عن خارطة المنطقة قبل ذلك بقرون . أما ماري فكان قد لفها النسيان بعد تدمير قصرها العظيم على يدي حمورابي الذي أراد أن يجعل من بابل وحدها ودون غيرها حاضرة الشرق .

في تلك الفترة انتقلت مصائر مدن سورية الشمالية والوسطى الى أيدي السادة الجدد ، الى الآراميين الذين تحركوا من أطراف البادية الشامية ليحلوا محل البيوت الحاكمة المنهارة في حلب وحماة ودمشق وليمدوا سيطرتهم على حوضي الفرات الأعلى والأوسط ، والخابور وعلى سفوح طوروس والأمانوس وجبال لبنان وحرمون والجليل حاملين معهم لهجتهم المختلفة عن الكنعانية التي احتفظت بقواعدها على مناطق الساحل الشمالي وفي بلاد كنعان ، فلسطين على الساحل الجنوبي .

وفي هذا الجزء من بلاد الشام وقع بين القبائل الغازية وسكان دول المدن الكنعانية ذلك الصراع الطويل الذي أدى حوالي ١٠٠٠ ق.م الى تكوين مملكة واسعة على أيدي مجموعة من القبائل المتحالفة بزعامة النبي داود . كانت مملكة عابرة شغلت حيزاً زمنياً ضيقاً من تاريخ البلاد الذي يمتد الى آلاف السنين ، وكان من الممكن أن تصيع أخبارها وتنسى ، كما ضاعت ولا شك أخبار أحداث هامة غيرها ، لولا أن خلد ذكرها الكتاب والكتّاب الذين جمعوا الأخبار وصاغوا نصوصها وسجلوها ، راقبوا النظم الاجتماعية والدينية والسياسية ووصفوها ، سمعوا أحاديث الناس بلغاتهم وألصقتهم وترجموها ونقلوها . كان ذلك من أروع انجازات ذلك الملك النبي الذي حشد حوله الكتّاب فسجلوا مرويات كانت أشبه بالأسطورة وجمعوا التراث المتداول على السنة الرواة بما فيه من أخبار وقصائد وأشعار كانت وضعت في موازين وقالب لغة البلاد الموروثة قبل أجيال ، لغة كنعان ، لغة المغلوب التي أضحت لغة الغالب . هكذا انتقلت عبر قنوات طويلة آثار أوجاريت وجبيل وبيوس أوري شلم وغيرها من ذلك المحيط الثقافي العام لتصب في بوتقة الكتاب الذي كان محصلة أول عملية تصنيف منظم في التاريخ . وان الباحث المؤرخ عندما يقرر الحقائق العلمية لا يقف هنا « أمام لغويات مقدسة » كما يقول أندريه كاكو^(١) لأنه يضع نفسه أمام قضية علمية . فمن هذا المنظار يمكن أن نجد في أسفار العهد القديم شواهد مكتوبة على حياة المجتمعات المعاصرة في مختلف مدن فلسطين وسورية .

ان التنقيبات الأثرية المنظمة التي أجريت في أنحاء المشرق العربي وفي سورية ولبنان وفلسطين أخذت منذ قرن تقريباً تكشف عن المظاهر المختلفة للحضارة في بلاد الشام وبدأت تقدم للباحثين المختصين في الخطوط والنقوش واللغات والتاريخ مادة أولية مكتوبة بلغات تلك الأجيال الماضية من الشعوب التي عاشت قبلنا على هذه الأرض . فأخذت صورة الماضي المجهول تقترب منا لتتضح ، وتتسع وتتكامل في تكوينها لتحيط شيئاً فشيئاً بجوانب من حياة

الناس في الماضي في عصور موعلة في القدم وفي الألف الأول ق.م ولتبين لنا العوامل المؤثرة فيها والحضارات التي تركت بصماتها عليها وبخاصة الحضارة الكنعانية التي شملت البلاد كلها منذ الألف الثاني ق.م .

وبعد أن كانت أسفار العهد القديم اذن، هي المصدر الأساس لتلك الفترة، تمثل الآن الوثائق الآرامية الغزيرة المكتوبة على البردي وعلى الفخار والتي وجدت في مصر (٢) وهي من العصر الفارسي معينا لا ينضب لدراسة الحياة الاجتماعية واليومية ومظاهر الفعاليات الاقتصادية والنظم القانونية للمجتمعات السورية الآرامية التي كانت تقيم وتعيش في مصر في أسوان وفيلة وهرمونيتس في ما بين القرنين السادس والثالث ق.م . وترجع الى عصر كانت الآرامية فيه وهي بالأصل لغة الشام آنذاك هي اللغة الادارية والعامة للحياة اليومية في الامبراطورية الفارسية كلها من وادي السند الى وادي النيل .

لقد اخترنا لدراستنا هذه عدداً من الوثائق الهامة نقدمها لهذه الندوة لأول مرة باللغة العربية، رجعنا في دراستها الى نصوصها الآرامية المنشورة والى الترجمات والدراسات التي أعدت عنها وأهمها دراسات ب. بورتن ما بين ١٩٦٨ - ١٩٧٦ (٣) والأستاذ الأب ب. غرولو (١٩٧٢) (٤) وكانت قد اكتشفت النصوص الأصلية لهذه الرسائل في موقع هرمويوليس في صعيد مصر عام ١٩٤٥ وهي رسائل متبادلة بين أفراد من أسرة آرامية كانت تقيم في أسوان والأقصر ونشرها مراد كامل واد. برشيان في روما عام ١٩٦٦ .

لقد بدأت تظهر بعض الدراسات العميقة والمنهجية والهامة حول مجموعات من هذه الوثائق الآرامية وبدأت تنجلي من خلالها بعض ملامح هذه المجتمعات القديمة . وبعد تسليط الضوء على الهوية اليهودية لهذه الجاليات المقيمة في مصر بدأت الدراسات الموضوعية (غرولو خاصة) تتحدث عن التعدد الاجتماعي والثقافي للجاليات السورية المقيمة في وادي النيل في تلك المرحلة (٥) والتي يمكن أن تعتبر في طراز حياتها اليومية وفي سماتها الأسرية على مثال الاسرات السورية المعاصرة لها في سورية الشمالية وبخاصة في مناطق جبل سيمان وحماة ووادي العاصي ، كما يتضح من الدراسات المقارنة للطقوس الدينية (٦) . لقد احتفظ المجتمع الآرامي في أسوان ، بمعتقداته التي حملها معه من موطنه الأصلي فيما بين الرها وجبل سيمان وجبل بركات وكفرنبو (٦) كما يحمل المغتربون والمهاجرون معتقداتهم وتقاليدهم معهم الى المهجر . كذلك أقام الآراميون في أسوان معابد ومزارات للأرباب : نبون مردوخ ، بنيت (ربة الذرية والبنوة ، عشتار) ، بيت إل أي مقام الاله ، وملكة السماء - ملكة شمين ، (عنات ، عشتار) على مثال معابدهم التي غادروها في بيت أجوشي (أفراد) وفي حماة ومناطق مختلفة من وادي العاصي .

من هذه الزوايا وضمن هذه الاعتبارات جميعاً يمكن أن يتوجه الباحث كما يبدو لنا الى محاولة البحث عن ماضي المجتمع الآرامي ووضع الأسرة فيه ، عن ماضي ناس عاشوا هنا قبلنا في هذه المدن وعلى هذه الديار ، كانت لهم حياتهم وعقائدهم ونظراتهم الى الكون

والحياة • كان لهم ما يشغلهم وما يثقل على قلوبهم من الهموم • كانوا يفرحون ويتعبون ويقلقون • لنقرأ هذا القلق مثلاً في رسالة مكّي بنيت الى أخته: (٧) •

« •• حروص قلق على صحتهم • الآن كل شي ءهنا على ما يرام فيما يخص حروص. لا تقلقي عليه • أهتم به كما لو كنت أنت تهتمين به وتابيموت وأحت سن تعنيان به • أنت غاضبة لأن أحداً لا يسأل عن حروص • الآن أقول كما أعنى بحروص تعنى بنيت بي ، لأنه حقيقة حروص هو أخي » •

الأم مضطربة قلقة على ابنها ، وأخوها يحاول أن يطمئنها يُشهد على صدق عمله ونيته الربة بنيت ••

لم يترك أولئك الناس صوراً لهم ولا نقدر أن نسمع أصواتهم ، ولكننا نكاد أن نحس بأنفسهم اللاهثة القلقة ، على سطور رسائلهم ، في جملها القصيرة والمتكررة والمتلاحقة ، نرى الترقب المضني في ارتعاش الأقلام في أيديهم وفي رسوم حروفهم على صفحات قراطيسهم وملفاتهم •

كان أفراد الأسرة يسعون الى التواصل بكل وسيلة بالكتابة على قطعة بردي ، على كسرة فخار ، كانت آثار خطوطهم ناطقة في توقها الى الخطاب • كانت معبرة وان هم صمتوا ، قريبة مفهومة وان أصحابها بعدوا • هكذا عدنا نقرأ خطاب مكّي بنيت ونبو شذب كأنه من رسائل الأقربين •

بعد هذا العرض الموجز لمصادر البحث ننتقل الآن الى الحديث عن الحياة اليومية في البيت الشامي خلال الألف الأول ق م : وما يتصل بها من ناس وأشياء فنستعرض بعض مراحل تطور هذا البيت على مر العصور ونلتقط ونحن نتلفت هنا وهناك اللقطات المتاحة من أجل محاولة تكوين الصورة المتكاملة المنشودة عن حياة الناس • ثم نتحدث بعدئذ عن أحوال الأسرة الأرامية من خلال وثائقها ورسائلها •

٢ - البيت الشامي في الألف الأول ق م :

كان البيت محور الحياة الأسرية ، كما يتضح من التنقيبات في آثار التلال والداكر والقرى والمدن القديمة في المنطقة • وقد خضعت هندسة البيت وطريقة بنائه ، وكذلك أشكال التجمع السكني وحجومه الى الشروط الطبيعية والاقتصادية التي ما تزال تؤثر حتى أيامنا هذه في فرص الاجتماع والاستقرار • وحتى مطلع هذا القرن بل الى ما قبل عقود قليلة من السنين لم يكن يجد الباحث المنقب والدارس المدقق فروقاً كبيرة بين البيت القديم في بلاد الشام والبيت الشامي التقليدي الذي كنا نعرفه قبل أن تغزو مظاهر الحضارة الحديثة بيوتنا ومساكننا وكل جوانب حياتنا.

لا شك ان الغيمة كانت بيت البدوي يقيم في حله ويحملة في ترحاله في بادية الشام التي كانت في تلك العصور القديمة تعج بالبدو الذين كانوا يعيشون باتصال

متكامل مع الحضر في القرى والمدن في الحاضرة . وكان الطين هو المادة الأساسية لبناء المسكن في كل المشرق القديم . ولكن في سورية وفلسطين كانوا يبنون فوق أساس حجري مربع الشكل على الأغلب (كما هو الشأن في أريحا ، في وادي الأردن) يرفعون فوقه جدراناً من الخشب واللبن واستخدمت أعمدة من الخشب لتدعيم هذه الجدران في الزوايا والمفاصل الهامة وعند الفتحات والنوافذ ولتكوين هيكل خشبي يملأ بقوالب من الآجر واللبن ، أما حل مشكلة السقف والانتقال من السقف القببي الطيني الى السقف المسطح فهو من الانجازات الهندسية التي تحققت منذ زمن مبكر عندما تمكن البناؤون من رفع السقف على أعمدة من الخشب تستند أيضاً الى قواعد حجرية عثر على آثارها في مدن قديمة في سورية وفلسطين . واستخدم الخشب في تغطية السقف كما استخدمت شباك من الحضر والقصب وسدت الفراغات بطبقة من الآجر واللبن . وبقيت المساكن القبلية المبنية على شكل الأكواخ القديمة البسيطة الى جانب البيوت الواسعة والقصور العامرة التي بدىء بتشيددها منذ أواسط الألف الثالث ق . م كما في إبلا ، في وسط البلاد ، وفي تل براك في أقصى الجزيرة .

كان للبيوت أبواب ونوافذ وفي بعضها آبار لتزويدها بالمياه وتمر في بعضها الآخر أقنية فيها مياه دافقة جارية كما كان الحال في بيوت الشام الى زمن قريب .

وللتغلب على الخوف عمل الانسان في مدن الشام على تنمية التنظيم الاجتماعي والسياسي للحياة الحضرية والمدنية من أجل الدفاع عن النفس وعن المصالح الحياتية للسكان فتراصت البيوت ضمن الأسوار المرتفعة والأبواب الموصدة . ويدل بناء هذه الأسوار وتضامن السكان في العمل من أجل تشييدها على احساس شديد بالخطر من جهة وعلى قدرة سلطة الدولة على قيادة المجتمع لانجاز الأعمال الكبرى من أجل الصالح العام ومن أجل الدفاع كما حدث في زمن ملك مؤاب ميشع وغيره .

ففي زمن نشب فيه الصراع ما بين مملكة مؤاب في شرقي نهر الأردن والبحر الميت وبين عمري وابنه أخاب ملكي اسرائيل (القرن التاسع ق . م) قام ملك مؤاب ميشع (أي المخلص) بمجهود كبير من أجل تحصين المدن والقرى وترميم الحصون ومضاعفتها وشق الطرق (طريق عرنون) وطلب الى سكان كل بيت أن يحفروا بئراً وأن يتزودوا بالمياه وقاد بعدئذ حرباً لا هوادة فيها وأوقع بالمهاجمين خسائر فادحة وردهم على أعقابهم . وقد ارتفعت نشوة الظفر في النقش المحفور للنصب التذكاري الى درجة الانشاد الملحمي (٨) .

كان البيت العادي يتألف على الأغلب من حجرة واحدة هي الملجأ والمأوى للأسرة حين الحاجة وقد تعد فيها زاوية مرتفعة لتكون سريراً للنوم توضع عليها فرش تحشى باللبن والقش أما الغطاء فقد يكون من الجلد أو غيره فكان دثاراً في الليل ورداء في النهار . أما المطبخ في هذا المأوى فكان يحتل زاوية أخرى من الحجرة نفسها أو خارج البيت ويتترك وسط الحجرة لاجتماع الأسرة على بساط من القش والجلد حول موقد ينفذ دخانه من فتحة في الجدار .

وتقدم لنا شواهد من فترة متأخرة صورة عن بعض العلاقات الانسانية التي لم تتغير كثيراً عبر العصور . لقد جاء على لسان السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وهو يعظ الناس ويعلمهم حب الخير والعطاء : « من منكم يكون له صديق ويمضي اليه نصف الليل ويقول له يا صديق أقرضني ثلاثة أرغفة ، لأن صديقاً جاءني من سفر وليس عندي ما أقدم له . فيجيب ذلك من داخل ويقول لا تزعجني . الباب مغلق الآن وأولادي معي في الفراش ، لا أقدر أن أقوم وأعطيك ، أقول لكم ، وإن كان لا يقوم ويعطيه لكونه صديقه ، فانه من أجل لجأته يقوم ويعطيه قدر ما يحتاج » (٩) .

وقد وجد المسكن المتعدد الحجرات منذ عصر مبكر في المنطقة من الألف السادس في تل حسونة في العراق ، وفي أوجاريت وجبيل على الساحل . لكن بيوت الموسرين في الألفين الثاني والأول ق.م تطورت معمارياً بصورة ملموسة وصارت تضم غرفاً متعددة ومطبخاً مستقلاً تنفتح على أرض الدار المكشوفة من الداخل ، فكانت تلك الهندسة بداية هندسة البيت الشامي التقليدي .

وفي بعض بيوت الساحل كانت باحة البيت متسعة ونصفها مسقوف أحياناً ، وكان هذا السقف يستند من أطرافه الثلاثة الى جدران المنزل بينما يستند من الطرف المفتوح على أعمدة من خشب الصنوبر أو الأرز ، وقد تبني حجرة أو أكثر على السطح تخصص عند الحاجة لاستقبال الضيوف . وكان لبعض الاسرات الغنية وللأمراء والملوك بيت للصيف وبيت للشتاء . ولنسمع ما قال برركوب ملك شمال متباهياً ببيته الجديد ، قال الملك الآرامي : (القرن الثامن ق.م) .

« غبطني أقراني من الملوك على ما ناله قصري من ازدهار .

لم يكن لآخواني من ملوك شمال قصر جميل كقصري .

كان لهم قصر كيلا مو وحسب .

كان لهم قصر الشتاء وكان لهم قصر الصيف ، أما أنا فقد بنيت هذا القصر » (١٠) .

أما مشكلات الأسرة اليومية فكانت معقدة وتلقي على عاتق أربابها أعباء كبيرة ومن أهم هذه المشكلات : الظلام والتنوير ، والمياه ، والغذاء ، واللباس . انها مشكلات يومية كبيرة لكن مواجهتها والحلول التي أوجدت لها ارتبطت بالشرط التاريخي للعصر ، وهو عصر الحديد ، وبالبيئة الاقتصادية وهي بيئة زراعية .

□ الظلام والتنوير :

كانت مقتضيات أمن الأسرة تقضي بالامتناع عن بناء النوافذ والفتحات المتجهة الى الخارج ولذا كان البيت ذو الحجرة الواحدة مظلماً لا يخفف من ظلمائه الا وهج نار الشتاء أو بصيص نور مصباح صغير ، وقد يضطرون الى فتح الباب طول النهار ليغلق في الليل بمزلاج بسيط عندما لا تكون ضرورة ماسة لفتحه لكن تطور هندسة المسكن أدى الى

التخفيف من الظلام بفتح نوافذ الحجرات على أبهاء مكشوفة في الداخل . بقي هذا التقليد الهندسي متبعاً في بلاد الشام الى عصرنا ، ثم حُلّت مشكلة التنوير المنزلي بانتشار المصابيح الفخارية الزيتية التي كانت تصنع محلياً وبطرق بقيت مرعية قروناً لكن أجودها كان يستورد من بلاد اليونان . أما تنوير الطرق والشوارع في الليل فلم يكن معروفاً في تلك العصور الا أيام الموكب حين توقد النيران وترفع المشاعل .

كان الظلام مألوفاً في البيوت في الليل حتى في أكبر قصور الشرق . يتحدث الفرعون المصري أمنمحت الأول (١٩٧٠ ق م) في نص وثيقة هامة عن محاولة فاشلة لاغتياله قائلاً :

« انتهت وجبة العشاء ، وحلت أظلم الليالي ورقدت على سريري وأغمضت عيني ، وأثقل النعاس جفوني وما ان بدأت أحلامي حتى أحسست بخطى متلصصة تقترب مني فاستيقظت وأمسكت بأسلحتي في الظلام . . . في الظلام كنت وحيداً بمفردي . . . » (١١) .

كان وقع الظلام رهيباً على الانسان وعلى شعوره بالأمن والخوف حتى ألّهت الشمس وعُبد القمر وجعل الانسان من الليل والنهار أرباباً ، جعلها شهوداً على عهوده كالعهود بين متّع ال ملك أرفاد وبرجايه ملك كتك من القرن الثامن ق م . ونسج حول هذه المعتقدات القصص الخرافية والأساطير .

□ المياه :

عني الانسان كثيراً في الشرق القديم بتوصيل مياه الشرب النظيفة الى البيت لاستخدامها أيضاً لحاجات المطبخ والحمامات المنزلية ، لكن العناية كانت ضعيفة بتنظيم صرف المياه المستعملة والمالحة التي كانت تترك لتصرف في الطرق . وبين الحضارات القديمة كانت كريت وبلاد وادي السند متميزة في هذا الشأن ، فقد أنشئت مجار بمحاذاة الجدران الخارجية للبيوت تتصرف الى خارج الأسوار وكانت هذه المجاري مكشوفة على الأغلب لكنها قد تكون مغطاة بأغطية نصف مستديرة مصنوعة من الآجر .

وكان بعض هذه المجاري ممدداً تحت الأرض . وقد وجدت مثل هذه المنشآت الصحية والأنابيب الفخارية المغلفة بالقطران في سورية في الألف الأول ق م عندما نمت وتطورت الحياة العمرانية والمدنية في ظل حكومات الدول الآرامية كما نلاحظ ذلك في آثار تل حلف ولا بد أنه وجد مثل ذلك في دمشق وحماة وغيرهما من المدن الآرامية الكبرى .

□ البيئة الزراعية وعقلية المجتمع :

تقنياً ، كان العصر عصر الحديد الذي دخلت فيه المنطقة منذ أواخر القرن الثالث عشر ق م . فالأدوات كانت تصنع من البرونز ولكن الحديد أخذ يدخل في صناعة الأسلحة والأدوات . أما الاقتصاد السائد فهو الاقتصاد المنزلي المعروف من القرون السابقة ، وتشير نتائج التنقيبات الأثرية الى أن المنزل لم يكن داراً للسكن وحسب بل كان ورشة ومؤسسة اقتصادية وللأسرة أدوات زراعية كانت تحتاج اليها في أعمالها اليومية ولا يمكنها الاستغناء عنها وأهمها الفأس والمحراث والمول والمنجل والعصا الطويلة لدق سنابل القمح والنورج لدرس محاصيل الحبوب .

أما التقويم السنوي ، فانه برنامج عمل لمجتمع زراعي ، كما يتضح لنا من مدينة جزر الكنعانية ، في جنوب فلسطين وهو كما يلي :

شهران للحصاد ، شهران للبذار ، شهران للبذار المتأخر ، شهر واحد لحصاد الكتان ، شهر واحد لحصاد الشعير ، شهر واحد للحصاد والكيل ، شهران لقص الكروم ، شهر لجز الصوف ، المجموع ١٢ اثنا عشر شهراً (١٢) .

وقد وصف النبي أشعيا عمل الفلاح وهو يراقب عمل الفلاحين في فلسطين بقوله : الفلاح يمهّد الأرض ويشقّها ويعدها ويسوي وجهها للبذر ، يذري الكمون ، ويبذر الحنطة في اثلام ، والشعير كلاً في مكانه والقطناني في حدودها « (١٣) .

ومع الناس كانت تعيش الحيوانات المستأنسة الأليفة في الأرض القريبة من البيت أو في الحقل أو المرعى تكمل العمل الزراعي أو تُعين عليه ، وهي الغنم والماعز والبقر والغنازير والحمير التي كانت تستخدم للنقل وحمل المتاع . أما الحصان فهو للأثرياء وللأقوياء . وهو أغلى ثمناً من الانسان ، ففي أوجاريت في أواخر الألف الثاني كان ثمن الحصان المستورد ٢٠٠ مائتي ثقلاً من الفضة (يزن الثقل البابلي ما يساوي ٨ غ من الفضة) ، أما الانسان الذي كان في مرتبة العبد كان ثمنه ما بين ٣٠ - ٥٠ ثقلاً . وقد ملكت القبائل العربية الجمل واستخدمته في النقل والحرب كما نعرف من أخبار شلمنصر الثالث (القرن التاسع ق م) وتكلات فلاصر الثالث (القرن الثامن ق م) فالزراعة والفعاليات المتصلة بها هي أهم ما كان يمكن ملاحظته في حياة الناس اليومية فلم تكن تخلو أسرة من فلاحين أو مزارعين أو من يعمل منهم في مجال يتصل بالزراعة . وقد انتقل السوريون الى الزراعة بعد مرحلة طويلة قضوها في الاعتماد على الصيد والرعي ولكن غلبة الزراعة على معظم مظاهر الحياة والمعاش لم تؤد الى غياب الصيد والرعي ، وبقيت هذه الفعاليات مندمجة متداخلة كلها في الحياة اليومية .

ومنذ الألف الثالث ق م طبع الكنعانيون حضارة البلاد بطابعهم وصارت أعيادهم ومناسباتهم من التقاليد التي استمرت في حياة الناس ومن هذه الأعياد ، عيد جز صوف الغنم وعيد الفصح الذي كان بالأصل عيداً للتضحية فتقدم القرابين والأغنام بخاصة وتراق دماؤها على مداخل البيوت وفاء بنذر أو طلباً للحماية والبركة ثم فتح هذا التقليد مدلولاً دينياً في العصور اللاحقة (١٤) .

لقد أثرت هذه البيئة الزراعية على العقلية العامة للمجتمع ، وانعكس ذلك التأثير بأجلى ما يكون في المعتقدات التي سادت عبر القرون وبخاصة في الأساطير والقصص الخرافية التي كان يجري تداولها بين الناس وتنظم الاحتفالات والمواكب لتمثيلها وتحكي للأولاد في البيوت للتعليم والتهديب وغرس قيم المجتمع في الأجيال وربما لما لها من قيمة سحرية واعتقاد بقدرتها على التغيير ومن أهم هذه الأساطير أسطورة بعل ، أدونيس وهي في

معناها العام مشابهة لأسطورتى دموزى/تموزى فى بلاد الرافدين وأوزير فى مصر ، مما يدل على وحدة جذور الفكر الدينى والكونى فى المشرق العربى القديم وعلى وحدة تعبيره الفكرى .

وفى هذه الأسطورة يموت أدونيس (١٥) فى الصيف ويبعث فى الربيع بتجدد الحياة فى الطبيعة ، كان الناس ينتظرون عودة أدونيس ويشقون أنه سيعود ، لكن الثقة كانت مزعزعة فيصلى الناس ويتعبدون سائلين الآلهة الرحمة لتنقذهم من تهديد الجوع ولتمنح الناس نعمة لأن فى قيامة الرب وبعثه رد الحياة للإنسان واستمرار للوجود .

لهذه الأسطورة التى تعتبر أشهر آثار الآداب القديمة فى بلاد الشام جذور ترقى الى الأدب الميثولوجى الأوجارىتى فى قصة عليان بعل الذى ينتصر عليه خصمه موت وهو القحط والجفاف ، فيحزن « ال » وتتوسل عناة أخت عليان بعل الى موت ليعيد أخاها فيرفض فما يكون منها الا أن تقتله ، وتعيد أخاها رمز الخير والخصب الى الحياة وتنقذ روح الحصاد فى حبة القمح . وتروى الأسطورة مراحل الانتصار :

« تمسك عناة الابن الآلهى موت (١٦) وتقطعه بنصلها وتذريه بالمذرة وتشويهه على النار وتطحنه بالطاحون وتنثر لحمه فى الحقل حتى تأكله الطيور » وهكذا يكون فى موت موت حياة عليان بعل بفضل جهود عناة . ويبدو هنا التأكيد على الدور الرئيسى للمرأة فى العمل الزراعى وفى انتصار الخير على الشر والخصب والعطاء على الجذب والبلاء .

وتشير نصوص أخرى من الأدعية واللعنات والتعاويذ الى اعتقادات غريبة عن الجن والقوى الخارقة ، ومنها الربة شبتى (الرقم ٧) التى يمكن أن نرى فى هذا النص الآرامى الذى ننقله الى العربية مقدار قوتها السحرية الرهيبة فى أذهان الناس (فى القرن الثامن ق م) لقد أطلقت لعنات محطمة على من ينقض عهداً من اليهود المعقودة بين متع ال ملك ارفاد الآرامى وبين برجاية ملك كتك وجاء فيها : (١٧)

« لتلقح سبعة كباش نعجة فلا تحمل
« ولترضع سبع مرضعات ولداً فلا تشبعنه
« ولترضع سبع أفراس مهراً فلا تشبعنه
« ولترضع سبع بقرات عجلاً فلا تشبعنه
« ولترضع سبع نعاج حملاً فلا تشبعنه »

ولئن خانت أرفاد عهداً :

« ليلتهم الجراد زرعها سبع سنين
« وليأكل الدود ثمرها سبع سنين
« وليعم فيها القحط ، ولا نبت عليها عشب ،
« ولا ظهرت على وجه أرضها ورقة خضراء . »

ان دلتنا هذه الأمثلة التي ذكرناها على بعض ملامح المجتمع والعقلية التي كانت سائدة فيه طوال العصر الذي ندرسه فلعل دخولنا الى البيت يطلعنا على صور أكثر دلالة على الحياة اليومية والأسرية في بلاد الشام القديمة .

لننظر الى البيت من الداخل :

الأثاث المنزلي :

لا ندري كيف كان يؤث البيت المتعدد الحجرات في العصر الآرامي القديم ، فقد ضاع كل أثاث من تلك العصور بعكس ما هو الحال في مصر القديمة وبلاد الرافدين . ولكن توجد دلائل قد تساعد على تكوين صور مقبولة للتعريف على الذوق العام وعلى حاجات الناس وامكاناتهم المادية . وقد يمكن أن نكون فكرة عن حاجات البيت الضرورية والمرغوبة من نص عقد زواج لامرأة بابلية يبدو أنها كانت تتمتع في أسرتها بشيء من اليسر والسعة هي ليوير ايساجيل ، وقد ذكر في هذه الوثيقة ما حملته معها من متاع وأثاث الى البيت الزوجي بالاضافة الى العبيد والحيوانات :

« اثنين من العبيد ، عدداً من الحيوانات ، حلياً وملابس ، قدراً نحاسياً يتسع ل ٣٥ قا (ما يعادل ٣٠ ليتر) ، جاروشة برغل ، طاحونة طحين ناعم ، سريراً ، خمسة مقاعد ، صندوقاً للزينة ، صندوقاً للمؤونة ، علبة مزدوجة ، مقلمة (علبة) للكتابة . سبعين قا (٦٠ ليتر) من الزيت ، سبعة قا (حوالي ١٠ ليترات) من الزيت المعطر ، جرة زيت الزيتون ، طبقاً من الخشب يحمل على الرأس ، طبقاً آخر كبيراً من الخشب ، مشطين خشبيين لتمشيط الصوف ثلاثة أمشاط من الخشب لتمشيط الشعر ، ثلاثة ملاعق صغيرة ، زبديتين ، صندوقاً من الخشب فيه مغازل للصوف ، وبرميلا » (١٨) .

ولم تختلف هذه الحاجات كثيراً بعد ذلك ، ولا ندري كيف كان شكل بعض هذه الأدوات ، كعلبة الكتابة ، لكنها على الأرجح لم تكن تختلف كثيراً عن شكل علبة أدوات الكتابة المعاصرة لها في مصر ما دامت الكتابة هنا وهناك بالقلم وبالحبر وعلى ورق البردي ، ويوجد في بعض المتاحف كاللوفر مثلاً نماذج منها .

ويبدو أن طرز الأثاث المنزلي لم تتغير كثيراً على مر العصور . وكان المنزل العادي البسيط يؤث بأثاث بسيط يتألف من البسط والحصر التي تغطي أرض الغرفة أو جزءاً منها وقد ترفع بعض الزوايا مراتب تمدها عليها المفارش والجلود تستخدم للاستراحة والجلوس في النهار والنوم في الليل . وتنشأ في الجدران السميكة خزائن وكوى كانت ترتب وتحفظ فيها حاجات المنزل . وقد وجدت دائماً المنضدة التي تستند الى قوائم بنفس الشكل المعهود منذ أقدم العصور ، وعرفت المقاعد الخشبية المغلفة بالجلد أحياناً .

أما التدفئة : فقد تطورت من الموقد الثابت الى الموقد المتنقل فالحطب كان يوقد وينقل على مواقد محمولة الى الحجرات والغرف ، ويترتب على ذلك أعمال منزلية منها افراغ الرماد من المنزل واعداد منافذ للتهوية واخراج الدخان الذي قد يفسد جو الغرفة ويؤذي العيون ويضعف الأبصار .

كان تعاقب الليل والنهار وضعف التنوير في الليل يتحكمان بتوقيت العمل وبتنظيم فعاليات الحياة اليومية في كل الحضارات القديمة . فالناس كانوا ينصرفون الى أعمالهم من الفجر الى الغروب . واليوم مقسم بالضرورة الى نهار مخصص للعمل والى ليل يجتمع فيه شمل الأسرة . وفي القرآن الكريم « وجعلنا الليل لباساً (أي سكتاً) ، وجعلنا النهار معاشاً » (أي للسعي والعمل) . وكان من أهم أعمال أفراد الأسرة اليومية والموسمية صنع الأدوات المنزلية المتنوعة من الفخار الذي له تقاليد عريقة في الصناعة ولكونه مادة للتجارة . وتحضير بعض المواد الغذائية السكرية كالعسل والدبس والزيت التي كانت تمثل مواد أساسية في الصناعة والحياة اليومية والمنزلية .

وللفخار : في بلاد الشام تقاليد عريقة ترقى الى الألف السابع ق .م وعندما جاء العصر الآرامي كان قد مضى على استخدام الفخار في الجزيرة وسورية وفلسطين ستة آلاف عام . كان الفخار يصنع باليد قبل اختراع دولا ب الخزاف في الألف الرابع . ثم انتقلت الى سورية التقنيات المتطورة التي ظهرت في العراق وايران باستخدام النار لشي الفخار ، وعندئذ أوجد الفرن الذي أدى الى صناعة الخزف وهو الفخار الملون للماع .

وكان الفخار يصنع محلياً ، وهو متنوع الأصناف والأشكال لتلبية الحاجات المختلفة . فمنه الجرار والأحواض والأباريق والقوالب والأواني المتعددة وكان لمدن الساحل شهرة خاصة في هذه الصناعة لكن الفخار اليوناني المستورد كان مفضلاً ومرغوباً بعد اتساع العلاقات التجارية ، فكانت مدينة بوسيندون عند مصب نهر العاصي بوابة البضائع الايجية والهلينية على الساحل السوري كما كانت نوقراطيس في مصر ومن هناك كانت القوافل تنقل البضائع المستوردة الى الداخل عبر وادي العمق ، ولا شك في تأثير التنافس بين انتاج الصناع المحليين وبين مصالح التجار على أحوال الناس اليومية ثم على المصالح المتضاربة بين الدول . فعندما تمكن الملوك الآشوريون في القرن الثامن ق .م من تنفيذ أهدافهم الاستراتيجية بالوصول الى موانئ البحر المتوسط عملوا بنفس الوقت وضمن حدود امبراطورية كبيرة على ايجاد سوق تجارية مشرقية واسعة ودفعوا أمامهم التجار اليونانيين الذين اضطروا الى الابتعاد عن مدن الساحل السوري ليتخذوا مراكز لهم في جزر رودوس وديلوس وأرخبيل السيكلا د بينما تقدم التجار الآشوريون والبابليون والكنعانيون والآراميون نحو كيليكية وسواحل آسية الصغرى .

لقد استمر هذا التفوق المشرقي التجاري في ظل دول مشرقية كبرى أربعة قرون (القرن الثامن – القرن الرابع) وبلغ ذروته في زمن الامبراطورية الفارسية التي ينبغي أن نقول انها كانت فارسية بسلطانها وادارتها وأرامية ببلغتها الرسمية وتجارتها لكن انتصارات الاسكندر المقدوني قلبت الوضع رأساً على عقب . فقد رافق الانتصار المقدوني الهليني هزيمة عسكرية وسياسية للامبراطورية الفارسية الاخمينية وهزيمة اقتصادية للتجارة السورية الآرامية الفينيقية، كان من مؤشرات البارزة .

أولاً : سقوط المدن التجارية الكبرى وتهديمها : صيدا وصور وغزة وثانياً الغزو الاستعماري الاستيطاني المقدوني – الهليني بإنشاء المدن الهلنستية : أنطاكية وأفامية وسلوقية وغيرها ..

ويشكل تحضير المواد السكرية إحدى الفعاليات الغذائية الرئيسية والضرورية للأسرة . فقد عملت أسر سورى فى مناطق كثيرة فى تربية النحل واستخرجت العسل الذى كان يصدر الى بلاد الرافدين وغيرها - وأدخلت صناعته الى آشور بعد التوسع الآشورى غربى الفرات فى القرن الثامن ق م .

لكن الدبس كان أكثر انتشاراً ويتم تحضيره منزلياً من عصير زبيب العنب الأحمر وتطورت صناعته منذ ذلك العصر واستمرت تقاليدىها القديمة الى أيامنا هذه . لم تختلف طريقة تحضيره فى تلك الأيام البعيدة عن طريقة تحضيره قبل ادخال الآلات الحديثة . فكان يوضع دريس الزبيب فى أوعية من الفخار مثقوبة من الأسفل وعلى الثقب قطعة من الليف وتحمل الأوعية على سقالة من خشب مثقوبة عند أسفل الوعاء وتوضع أوعية كبيرة تحت الأوعية المثقوبة المحمولة لتجميع العصير الذى يقطر من الثقب ويضاف الماء الصافى فوق الدريس ويحرك المزيج حتى يرشح السائل الى الوعاء السفلى فىأخذونه بعدئذ ويطبخونه حتى يصير دبساً .

لنتحدث عن الزيوت على سبيل المثال :

أما الزيوت : فكانت تحضر اما فى البيوت باشتراك أفراد الأسرة أو فى معاصر القصور والدور الكبرى والمعابد التى كانت مراكز متنافسة للفعاليات الاقتصادية الى جانب دورها السياسى والدينى . فالسمن الحيوانى معروف فى المجتمعات الشامية القديمة التى مارست الرعى منذ فجر التاريخ . ولكن فى المجتمعات المدنية استخرجت الزيوت بصورة منظمة من السمس الذى ورد ذكره بهذا اللفظ فى نصوص مارى تل الحريرى (القرن الثامن عشر (٢٠) .

وبقى استخدامه تقليدياً لدى بعض المجتمعات فى بلاد الشام القديمة حيثما حلت . أما استخراج زيت الزيتون فقد شكل جانباً هاماً من إنتاج البلاد فى ظل الاقتصاد المنزلى . وبنيت المعاصر الكبيرة لعصر الزيت وتمويله وخزنه وحفظه وتصديره . واشتغل فى مختلف مراحل العمل فيه كثير من الناس من قطف الثمر الى جمعه ونقله وعصره وحفظه والاتجار به . حتى البذر كان يعصر ويؤخذ ما تبقى من الخشب وقوداً للآتون وللأفران وصار لشجرة الزيتون مكانة خاصة ولزيتها قيمة سحرية فى البيت والمعبود . فجعلت التقاليد من الزيت مادة مقدسة اذ تذكر الأخبار أن ملك مقاطعة نحاشة الواقعة جنوبى حلب ، سيم جده كاهناً أكبر على يدي الفرعون تحوتموس الثالث الذى صب على رأسه الزيت المعطر المقدس . فأضحت عادة المسح بالزيت من طقوس احتفالات التتويج بعدئذ .

وهكذا نجد اذن أن الأسرة فى ظل هذا النظام الاقتصادى المنزلى لم تكن مؤسسة اجتماعية وحسب، بل كانت مؤسسة اقتصادية أيضاً . كانت المرأة الى جانب الرجل عاملاً اقتصادياً فعالاً ومهماً قام بدور تاريخى فى تطور المجتمع وحضارته ، لكن لقاء ثمن باهظ من التعب والنصب والجهد والأرق والعرق . وبالإضافة الى ذلك كان للمرأة فى الأسرة عمل تختص به هى التى تقوم به أو تديره بنفسها، وهو اعداد الطعام واعداد اللباس .

□ المطبخ واعداد الطعام :

ان أبرز صور الحياة الأسرية هو اعداد الطعام والمائدة المشتركة للأسرة ، وللمرأة دور أساسي في ذلك فهي المسؤولة عن المطبخ واعداد الطعام بينما يمضي رب الأسرة وأولاده الكبار الى الحقل أو البستان أو ينطلق بعيداً متنكباً قوسه أو حاملاً رمحه ليصيد في البر أو مزوداً بشبكة للصيد في البحر . وعندما يبتعد الرجل عن البيت تبقى المرأة أمّاً كانت أو زوجاً حاضرة فيه واعية لما عليها من أعباء جسم .

كان عليها في ذلك العصر أن تعد كل شيء وأن تكون متقنة للكثير من المهارات لخدمة المنزل وتأمين حاجاته . كان عليها أن تجرش القمح وأن تطحن الحبوب بقوة ساعديها على طاحونة من الحجر صنعت بيدي نقرّار ماهر ثم تطور شكلها عبر العصور ، فبعد أن كانت تتألف من حجر مسطح أو مقعر يدرج فوقه حجر اسطواناني على الحبوب لجرشها أو طحنها صارت تتألف من حجرين مستديرين للعلوي منها خرق تلقم منه الطاحونة كمية من الحبوب ويدار بمقبض مثبت عليه .

وكان الاهتمام كبيراً **بالموقد** الذي كان يبني في المطبخ وقد تعد أحياناً مواقد مرتفعة قليلاً وتقام فوقها مداخن لسحب الدخان وإخراجه من المطبخ . وكان يبني في البيت تنور لخبز الخبز لأن الأفران العامة لم تكن موجودة إلا في القصور الكبرى أو المعابد التي قد يبلغ عدد الأفراد الملحقين بها والذين يتناولون طعامهم اليومي منها المئات بل الآلاف أحياناً . كانت طريقة الخبز على الصاج معروفة أيضاً ووجدت قوالب فخارية لصنع المعجنات بأشكال مختلفة منذ الألف الثاني ق .م كما يتضح من آثار قصر زمري ليم في ماري (٢١) .

ويجدر بنا هنا أن نقف عند بعض أصناف الطعام التي كانت تحضر آنذاك . ويأتي **الخبز** في المحل الأول من الأهمية ويعتبر عنصراً أساسياً في التغذية ، ويصنع من طحين الشعير ومن القمح ، ومن أهم المشروبات **البعجة** التي تحضر من الشعير وهي معروفة في النصوص الأكادية (شكارو) ، ويصنع السكر من التمر . أما **نبيذ الزبيب** وصهباء العنب فمعروفان في المناطق الكنعانية بخاصة ، ومن أسماء العنب في الأوجاريتية والكنعانية **وَيْن** . وفي لسان العرب **الوين** هو العنب الأسود والأبيض ، وقال ابن خالويه : **الوينة** الزبيب الأسود فالكلمة مشتركة في اللغات العربية السامية وهي تشبه في نطقها مرادفات في اللغات الأوروبية التي ترجع الى الأصل اللاتيني Vinum واحتفظت سورية بشهرتها بالكرمة والخمرة في العالم القديم الكلاسيكي والاغريقي الروماني ومنها خمر أفامية التي كان يمزج بالعسل ، وخمر الأندرين وخمر الجليل والخمر الفلسطيني ، وقد تغنى به شعراء العرب في الجاهلية .

أما الخضار والبقول المعروفة فمنها القرع والحمص والعدس والبصل والبراصية وأنواع اللفت وجذور الشمرة والخيار والفجل وذكر من الثمار التين والجوز واللوز والفسق والرمان ، وعرف السماق وعرق السوس ومن الزهور الزنبق .

واعتمدوا في غذائهم اليومي على البيض والحليب والجبن وانصرف عدد كبير من الناس للعمل في الصيد فحضروا الشباك وأعدوا السنارة أو الحربة حتى أضحي الصيد من فعاليات دول المدن الكنعانية الساحلية وانعكست حياة البحر وما فيها من خطر وغموض وأسرار على أفراد أسرة الصياد الغائب الذي كانوا ينتظرون عودته وهم يعدون الأيام والشهور وقد استحوذ على أفئدتهم قلق ممض لم يكن من السهل الفكاك منه .

أما اللحم فكان يقدم في مناسبات اجتماعية وأسرية وتهدي الأضاحي للآلهة والمعابد في الأعياد والمناسبات الدينية وتكون من الغنم والماعز والبقر والغزلان والخنازير ومن أنواع الطيور . وقد كانوا يأكلون بأيديهم ولكنهم كانوا يستخدمون عند الحاجة السكاكين من الحجر والعظم والمعدن والملاعق التي تبدو على شكل ساعد يحل صدفة كما وجدت القموع لصب السوائل والموازين لووزنها .

□ الملابس :

كان اعداد الملابس من المهام الكبرى الملقاة على عاتق الأسرة فلا توجد معامل أو مؤسسات خارجية حقيقية يمكن الاعتماد عليها لتزويد الناس بحاجاتهم الى اللباس سوى ما ينتج في ورشات الحياكة في المعابد مثلاً ولذا كان على الأسرة أن تعتمد غالباً على نفسها في تأمين حاجاتها الأساسية . وفي بلاديشكل الرعي فيها جانباً كبيراً من الفعالية الاقتصادية يكون الصوف مادة أولية لفزل الخيوط ونسج الملابس وفي المتاحف بقايا آثار من أدوات النسيج كالثقبان المؤلف من العجارة الثقيلة والمثقوبة لتثقيب لفائف الغزول كما عثر على نماذج من المغازل والمكوك .

كانت الملابس تصنع من مواد أولية متعددة فالكتان لصنع الملابس الخفيفة ، والصوف لصنع الملابس الغليظة واللبود .

وقد صبغوا الأقمشة وشرّقوها بالألوان الجميلة ومنها اللون الأرجواني الأحمر (٢٢) الذي اشتهرت به مدن الساحل الكنعاني وصدرته الى قصور المشرق والى بلاد حوض المتوسط . وكانت تصنع سترات من الفراء والجلود ، كما يتضح من رسالة مكّي بنيت الى بسامي ووهب رع . (انظر فيما بعد)

وانتشر استعمال القطن منذ القرن السابع مع التوسع الآشوري في المنطقة وعثر في التنقيبات الأثرية على دبابيس وأزرار كانت تستخدم لربط قطع الملابس المفصلة وإحكام اغلاقها . لكننا لا ندري كيف كانت تخاط الملابس هل كانوا يفصلونها على قطع أم كانوا يقصونها من قطعة واحدة من القماش، لكننا نعرف بعض أنواع الملابس من التماثيل والنحوت الباقية فكان الرجل العادي يلبس قميصاً فوقه رداء يشد بحزام ويعصب شعره بعصابة تلف حول الرأس ثم صنعت أغطية الرأس من اللباد للرجال . وللنساء أشواب متنوعة من الكتان منها ثوب يصنع من قطعتين أو أكثر ويغطي الكتفين ، كان مكسراً أو مشني ومزيناً بحواش وتضع النساء القلائس الطويلة المرتفعة وفوقها منديل طويل قد يستخدم نقاباً أو حجاباً وانتشر لبس السراويل الواسعة في العصر الفارسي في كل ولايات الامبراطورية ومرزباناتها منذ القرن السادس .

واستخدم الموسرون الأحذية الجلدية والأخفاف والنعال التي كانت تحتذى وتشدد الساق بأحزمة تربط بعناية كما يتضح من آثار النحت لكن الغالبية العظمى من الناس لم تكن تجد حذاء أو نعلا .

وعُني الناس من الرجال والنساء على السواء بالزينة لكن الزينة للنساء هي الأغلب فاقتنوا الحلي من الفضة والذهب والبرونز والحجارة الكريمة كالفيروز والعقيق وصنعت منها الأقراط والقلائد والمعاصم والخواتم والمعاضد والخلاخيل . أما الشعر فكان يترك طويلا ولا يقص الا مرة في السنة ، لكنهم كانوا يعنون بتنظيفه بمنقوع النباتات والفار ومغلي نبات الخروع ويدهنون بالزيوت المعطرة .

وصنعوا من عاج الفيل الذي كانت قطعانه تعيش في سورية الشمالية في غاب العاصي حتى القرن السابع ق .م الأختام المنقوشة بمشاهد من الحياة اليومية والدينية والتماثيل والعلب والأمشاط والحلي واللوحات واستخدموه للتنزيل على الخشب لتزيين الأثاث وبعد أن كانت أوجاريت مركزاً مهماً لصناعة العاج احتلت هذا المركز بعدئذ كركميش (جرابلس) ووجدت آثار عاجية هامة في موقع أرسلان طاش (حداتو القديمة) وهي موجودة الآن في متحف اللوفر .

وقد تفننوا بصنع الأحزمة وأغطية الرأس والمناديل الملونة التي كانت محلا للمنافسة والتباهي . وقد تستورد من مناطق بعيدة بعد أن عرف الشرق القديم في النصف الثاني ثم الألف الأول ق .م أوسع سوق اقتصادية في تاريخه امتدت من الهند وتركستان شرقا الى وادي النيل وبحر ايجه غربا .

في هذا العصر الذي امتد قرنين تحت تأثير الفرس (من أواخر القرن السادس - أواخر القرن الرابع ق .م) وثلاثة قرون أخرى ما بين دخول الاسكندر المقدوني والاحتلال الروماني (من أواخر القرن الرابع - ٦٤ ق .م) حدث تلاق متسوع وشامل وعميق بين حضارات المشرق بعد حلول الامبراطورية الفارسية الشاملة محل عروش الممالك القديمة فوحدت الادارة ولغتها رسمياً لأول مرة في هذه المنطقة من العالم القديم وفرضت اللغة الآرامية نفسها لغة عامة ومشاركة للامبراطورية الكبرى المتعددة اللسان واللغات واحتل التجار السوريون في البر والبحر دوراً هاماً في بنية الدولة الاقتصادية فحملوا معهم العطور والأقمشة والعقاقير والتمر والزيت والثمار المجففة واستوردوا الحرير والتوابل والبخور وتحركت أسرات وجاليات بين بلدان الدولة وأقطارها حاملة معتقداتها وثقافتها وعاداتها فاثروا وتأثروا في البيئات الاجتماعية والأوساط الثقافية التي انتقلوا اليها وهو ما يبدو لنا بأجلى صورة في دراسة أحوال أسرات سورية آرامية أقامت في مصر حوالي القرن الخامس ق .م .

٣ - ملامح من أحوال أسرة آرامية مقيمة في أسوان في حوالي أواسط القرن الخامس ق .م :
□ الأسماء :

تستند هذه الدراسة الى نصوص عدد من الرسائل (٢٤) نشرها مراد كامل وادا برتشياني عام ١٩٦٦ ودرسها وترجمها الى الانكليزية ب . بورتن عام ١٩٦٨ والى

الفرنسية بـ • غرولو عام ١٩٧٢ وما نحن نقدم مع هذه الدراسة ترجمة لهذه الرسائل الى العربية بعد الرجوع الى النص الآرامي والترجمات الحديثة له •

أرسل هذه الرسائل شخصان هما : مكى بنيت (من كبنيت) وبنيت هي عشتار ربة الخصب والانجاب والبنوة • ونبو شذب (نبوشة = نبو يشذب) من منفيس الى أهلها في أسوان •

لهذه الرسائل قيمة تاريخية كبيرة فعدا عن محتواها وأسلوبها وخطها ورد فيها ما يقرب من خمسين من أسماء الأعلام وان لهذه الأسماء أهمية كبيرة في الدلالة على المجتمع الذي ينحدر منه أصحابها ، وهي مصدر للدلالة على الهوية الاثنية للأفراد والجماعات وعلى العلاقات الأسرية ومؤسسات العائلة والمعتقدات • وبعد أن سلطت الأضواء في الدراسات التي صدرت من قبل عن هذه الوثائق على الأسماء اليهودية أعدت قوائم مفصلة بأسماء آرامية وفينيقية ومصرية وأكاديمية وإيرانية وأناضولية وعربية واغريقية (٢٥) • وهكذا فان المجتمعات الكبيرة المدنية تلتقي فيها جنسيات وثقافات متعددة • واننا نرى أن دراسة أمثلة من هذه الأسماء قد تقدم لنا عينة يمكن أن تساعد على تكوين فكرة عن الجالية التي كانت تعيش في أسوان وفي مراكز أخرى • فالاسم في المكان الذي يوجد فيه وبالصفة التي يكتب بها وثيقة تعبر عن انتماء صاحبه وعن هويته الثقافية ، كما تعبر الأسماء المختلطة عن تفاعل الثقافات وهذه أمثلة عن أسماء مركبة مع أسماء معبودات مثل :

- سين (القمر) : أخت سين ، سين عقب ، (سين حرس) سين أبلط (سين أحيى) •
- بنيت (عشتار) : مكى بنيت (من كبنيت) •
- نبوتن : نبو أعطى •
- نبو راعي : نبو راض •
- نبو شذب : نبو شذب (خلص ، أنقذ) •
- نبو عقب : نبو حرس •

ونجد أسماء آرامية مركبة مع اسم الربّة عشتار ، عثر آثار ، كما تلفظ بلهجات مختلفة مثلاً :

- أتا أدري = عشتار ، عنات أزرى / أدد أدري/ أزرى •
- عتر ملكي = عشتار ملكي •
- عتر دمري = عشتار قوّتي وناناى حم = ناي الحميمة •
- ووردت في النصوص أسماء أعلام مركبة مع أسماء أرباب مصرية ، مثل حُر ورع :
- وحب رع = رع رحيم ، واسع الصدر ، وهو اسم الفرعون أبريس •
- حروص = حور ووجا أي حُر سعيد •

من الأسماء الآرامية الدارجة التي يتضح لنا معناها بالمقابلة الفورية مع العربية :

- أبي طاب : أبي طيب •
- أخي قر : أخي غالي ، وقور •

- عبد صدق : عبد صادق
- عوذ نهر : نهر أو نهار يعوذ
- رجب ال : ال رجب
- راعي بل : بل راع
- أخت أبو : أخت الاب

وهناك مجموعة من الأسماء غير المركبة من العربية القديمة :

- عمرو ، وأيضاً عبد عمرو أي عمر وعاش عمراً مديداً سعيداً
- بئرى : نبعي
- حبيب : حبيب
- حجّاج : المكثر من الحج
- حرمان : من محرم
- عدي : من عاذ : معاذ
- عربايا : العربي
- عُنْبة : عقبة ، حرس
- وهناك أسماء طريفة مثل :
- قلقلان : من قلقل ، وسائل من سأل ويتم ، يتما : يتيم

□ بنية الأسرة ومشكلاتها :

الأسرة الآرامية التي نتحدث عنها هي أسرة أبوية تخضع لسلطة الأب الكبير في الأسرة وهو الجد : بسامي (بسامتيخ) ابن نبوتن. زوجه هي الجدة ماما ، وخلافاً لاحتمال التشابه اللفظي مع مفردات تدل على الأم يرجح أن يكون الاسم مشتقاً من معم ، معم بالمصرية : نخلة وهذا المعنى يفضل على ميمي ، ميميت : زرافة .

ويُخاطب الجد والجدة في الرسالة بكل احترام : خادمك سيدي ، وما يزال هذا الخطاب مرعياً في التربية الأسرية الشامية .

أما مرسلات الرسائل فينتميان الى أسرة واحدة . ولكن لا نستطيع أن نعرف بدقة صلة القرابة الحقيقية ، لأنه ليس من الضروري عندما يخاطب المرء رجلاً آخر : أبي ، أو امرأة : أمي أن يكون ولداً لهما كما هو حال نبوشة الذي يمكن أن يكون ابناً لبط خنوم (خنوم أعطى !) وماما أو صهراً لماما ولزوجها الثاني بسامي .

ونقع أمام اشكال آخر عندما نقرأ كلمة أخ أو أخت فعلى الطريقة المصرية القديمة يتخاطب الزوجان بقولهما :

أخي وأختي سن ، وسنت . كما يمكن اطلاق هذا النداء على أشخاص آخرين من الأقرباء .

ويرد معنا اسم زوجة مكي بنيت تاشاي (تت شي) = Tasay واسمها مصري معناه ابنة القدر . ويقيم بعض أفراد الأسرة تارو وتابي في أوفي (الأقصر) بينما تقيم

رعية أم حروص وتاشاي زوجة مكى بنيت وبسامي رب الأسرة وناناي حم زوجة نبو شذب في أسوان .

ونستطيع أن نفهم من مضمون رسائل الأسرة الخاصة أن توزعها كان لضرورات العمل والوظيفة . كما أننا نستطيع أن ننفذ إلى ضمير أفراد هذه الأسرة لندرك عمق إيمانهم إلى جانب تسامحهم وبعدهم عن التعصب فالرسائل التي أرسلت من منفيس إلى أسوان كانت تتوج بتوجيه التحية إلى معبد نبو (المعبد الآرامي) ثم بمباركة بتاح رب منفيس المصري . وفي ذلك مثل رائع على التسامح الديني بين الآراميين المقيمين في مصر إلى جانب جاليات أخرى ومؤمنين آخرين .

كانت الرسالة تطوى ويكتب على الوجه الخارجي اسم المرسل إليه واسم المرسل والعنوان . وكان البريد ينقل بطريق المراكب النيلية ويحمله المسافرون من التجار أو الجنود ، أو الموظفون الرسميون .

ولكن ماذا تتضمن هذه الرسائل ؟ انها تتضمن ما يمكن أن تواجهه أية أسرة في حياتها اليومية : قلق الأب الغائب على بيته وصحة أولاده (في نص رسالة الحلم) . قلق الأم على ابنها ، (في رسالة مكى بنيت إلى أخته) . أما رسالة مكى بنيت إلى زوجة فهي على جانب كبير من الأهمية لما تتضمنه من معلومات عن حاجات الأسرة ومشترياتها : من الصوف وزيت الزيتون وزيت الخروع والخشب .

وفي رسالة مكى بنيت إلى بسامي اشارة إلى طلب جلود حيوانات لصنع معطف أو رداء . أما رسالة نبو شذب إلى زوجة ناناي حم فتتضمن طلبات وتحيات إلى أفراد الأسرة والأصدقاء والجيران . وتتضمن الرسالة الأخيرة نص بطاقة من رجل إلى أمه يوصيها برعاية أطفاله . وهي تطلعنا على بعض دخائل حياة الناس وهمومهم اليومية والعادية وتؤكد لنا اهتمام رب الأسرة بأسرته ورقابته عليها .

وفيما يلي ترجمة عربية لنصوص هذه الرسائل :

□ النصوص :

النص الأول : الحلم ، من سجل النقوش السامية (CIS II, 137)

هو من أكثر النصوص طرافة لكنه من أكثرها صعوبة . ربما يتضمن الحديث عن حلم يرويه مرسل الرسالة لزوجته . يقول أنه منذ أن رأى الحلم وهو يشعر أن حرارته ارتفعت وبدا له من يخاطبه بقوله : رعتك السلامة : عندئذ يخاطب الزوج زوجته :

« والآن ان شئت ينبغي أن تشتري أي شيء يجب أن يأكل الأولاد والا يُبقوا من الطعام شيئاً » .

وكان هذه الرسالة التي اختلف في ترجمة نصها الأصلي المترجمون (٢٦) جواباً على رسالة من الزوجة إلى زوجها المقيم في مقرر عمله ، يكلفها بأن تشتري أي شيء من الطعام لتقديمه لهم بدون تقنين أو تقدير .

النص الثاني : رسالة مكي بنيت الى أخته (٢٧) من مجموعة رسائل هرموبوليس (LH 1) يبدو أنها رسالة جوابية على رسالة تلقاها مكي بنيت من أخته رعية (رفيقة) .
يؤكد مكي بنيت اهتمامه بما تشكو منه ويبيدي رأيه بمشكلات تخص أسرته .

نص الرسالة :

« السلام على بيت نبو ،

الى أختي رعية . من أخيك مكي بنيت ، ليباركك بتاح لأرى وجهك بصحة طيبة .
سلامي الى بنيتي سرلثي (اسم أكادي معناه لتمنحني بنيت ابناً عادلاً وقوياً) ، الى أرج الى ايسيرا شوت (Isrswt = 3s rs wt) ايزيس تسر ، والى شردور (الملك حصن)
حروص قلق عليهم .

الآن ، كل شيء هنا على ما يرام فيما يخص حروص . لا تقلقي عليه . أهتم به كما لو كنت أنت تهتمين به . تابيموت وأحتسن تعنيان به . والآن (أقول) انك لم ترسلني رسائل لاسمه والآن أنت قلت لبثاي وأنت غاضبة علي : أن لا أحد سائل عن حروص . الآن أقول : كما أعني بحروص تعني بنيت بي . لأنه حقيقة هو أخي . أرسل اليهم (لحروص ومن معه) مبلغ من المال (من منقيس) وستحفظ لحسابهم في أسوان ان وجد دائن برهن يطالبكم بدينه فلتحولوه الى تابيموت (التي تسلمت المبلغ) . والآن لا تشتري (لحروص) ملابس ولا ترسلني اليه شيئاً . أرسلني اليه أخباراً عن يقية (متبصرة) و (ربما هي قريبة لتابيموت) . الآن وجهي اهتمامك الى تاشاي والى ابنتها .
واخبريني بكل ما يمر بالبيت من أحداث .

لتحيتك أرسل اليك هذه الرسالة . »

(العنوان) : « الى أبي بسامي بن نبوتن .

من مكي بنيت . يحمل الى أسوان . »

النص الثالث : من مجموعة رسائل هرموبوليس (LH 2) :

رسالة من مكي بنيت الى زوجه (٢٨) .

في الوقت الذي أرسل فيه مكي بنيت رسالة الى أخته أرسل رسالة أخرى الى زوجه تاشاي . ويتضح من هذه الرسالة مدى ضغط المشكلات الاقتصادية على الأسرة وأهمية التجارة الداخلية . والحاجة الماسة الى الخشب .

□ نص الرسالة :

« سلام على بيت بنيت . الى أختي تاشاي ، من أخيك مكي بنيت . ليباركك بتاح لأرى وجهك بصحة طيبة .

نبوثة بخير هنا لا تقلقي عليه • لن أبتعد عن منفيس سلامي الى بسامي وياقي
(يقيه حذرة ، بصيرة) ، سلامي الى ناناي حم •

الآن مبلغ المال الذي كان معي أقرض بفائدة الى بنيت سر ابن طاباي (تلاحظ
النسبة الى الأم) أخت نبوشا وهو ٦ ثقل وزوز واحد من الفضة ، (الزوز : نصف ثقل) •

الآن أرسلني الى تاباي : (تاباي : صاحبة باي أتت) لترسل لك كمية من الصوف
لقاء ما عليها من المال وهو ثقل واحد • الآن ان سلّمت اليك نعجة مع صوفها أخبريني
برسالة • واذا أعطيت اليك الصوف المستحق من قبل مكّي أرسلني الي (رسالة) • وان لم
يعط اليك الصوف أرسلني الي • عندئذ أعترض عليهم هنا •

الآن اشترت زيت زيتون من أجل يقي ، وثوباً ، وانا جميلا لك وزيتاً معطراً لبنت
بنيت (المعبد) • لكنني لم أجد من يحمل لكم هذا كله •

الآن أرسلني لي من زيت الخروج ٥ حفنات (٢٩) • أعط من الحبوب الى وحب رع :
ليشتري بها أعمدة من الخشب وليدعها في بيته • لا تعترضني سبيله بشيء ليشتري كل عمود يعثر
عليه • اذا ما أعطتك رعية من الصوف أرسلني لي •

سلامي الى تيطوزيري (اسم مصري) : تع ديت أوزر ، (أي هبة أوزر) اعطني بها •
أرسلت اليك هذه الرسالة لأحييك • »

(العنوان) : « الى تاشاي من مكّي بنيت بن بسامي ينقل الى أسوان » •

النص الرابع : من مجموعة رسائل هرموبوليس (LH 3) :

من مكّي بنيت الى بسامي (أبيه)
ومعظم محتواها يخص وهب رع

يظهر في هذه الرسالة اسم الأم ممة : (ماما) • ولم تتضح علاقة القربى مع وحب رع
ربما كان صهراً وزوجاً لاحدى أخوات مكّي بنيت •

يلفت النظر طلب الجلد لصنع ملابس جلدية • وذلك لتوفر الجلود في افريقية • ربما
كان يؤتى بها من النوبة وتشتري في سوق أسوان •

□ **نص الرسالة :**

« سلام على بيت بنيت في أسوان •

الى سيدي بسامي ، خادمك مكّي بنيت •
أدعو لك ببركة بتاح ليجمعني أرى وجهك بصحة طيبة •

سلامي الى أمي ممة (ماما) سلامي الى أخي بتاي ، الى زوجته وأولادها ، سلامي الى
رعيه لتكن مطمئنة من جهة حروص ، لن أتركه وحيداً بقدر ما أستطيع • واني الآن أعني به •

الى أخي وحب رع من أخيك مكي بنيت .
أرسل اليك تحيتي وامنياتى بطول العمر .

الآن ان وصلت اليك جرة الزيت الصافي، أرسل الي واخبرني عن طريق عقبة بن
رحب رع .
الآن أطلب مني ما تريد .

أرسل لي جلوداً ، الكمية اللازمة لصنع ملابس جلدية عدد (١) . اقتطع من شعير
تاشاي وسدد به ثمن الخشب . ودع لمه (ماما) كل عارضة خشبية تجدها .
اشترت من البروكار « حطبت » (يرد ذكرها في وثائق عقود الزواج أيضاً)
ومن الزيت المعطر ، لكنني لم أجد من يحمله لكم .

الآن أرسلوا لي من زيت الخروع ٥ حفنات (الحفنة مقدار يساوي ملء راحتين) .
لا تقلقوا علي ، لكنني أنا قلق عليكم .
لتحيتكم أرسل اليكم هذه الرسالة . «
(العنوان) : « الى والدي بسامي من مكي بنيت بن بسامي ، ينقل الى أسوان . »

النص الخامس : من مجموعة رسائل هرموبوليس . (LH 4) :

رسالة من نبو شذب الى زوجته ناناي حم (ناناي الحميمة) (٣٠) .

موضوع هذه الرسالة أمور عائلية خاصة تتعلق بالملابس ومرة أخرى بزيت الخروع
الذي كان من المواد التي تتجر بها الأسرة وتأتي هذه الرسالة شاهدة على دخول الطقوس
الدينية الرافدية والسورية الى مصر . وتؤكد مصادر أخرى تعدد مراكز عبادتها في مجداول
ومنفيس وأسوان (٣١) .

وهذا يعني بنظرنا أن الحضارة المصرية القديمة لم تكن منعزلة عن حضارة المشرق
العربي القديم .

□ **نص الرسالة :**

« السلام على بيت بيت ال وعلى بيت ملكة شمين (ملكة السماء) الى أختي ناناي حم من
أخيك نبوشة .

ليباركك بتاح لكي أرى وجهك بصحة طيبة .

سلامي الى بيت ال نتن : سلامي الى نقي، الى عشا (ع s c = غني) ، الى
تاشاي وعناتي وأتي ورعية .

الآن الثوب الذي أرسلته الي وصل .

ان قلبي لم يتعلق به ، سأبادله باناء مع آتي .

الآن الثوب الذي أرسلته الى أسوان هو الذي ألبسه . الآن أرسلوا إلينا زيت خروع
ونبادله بالسمن (ربما زيت السمسم) .

الآن لا تقلقي علينا علي وعلى مكى بنيت لكننا نحن قلقون عليكم . احرصوا على
بيت ال نتن من حبيب (أو خبيب) (أيضاً حبيب) في المصرية القديمة تعني الماء والنهر .
الآن ان وجدت من أثق به أرسلت لكم شيئاً معه .

سلامي الى شبتاي بن شوج . سلامي الى باساي ، سلامي الى عزر بن باساي ، سلامي
الى سائل بن بتحور تيس (من أعطاه حور تيس) والى عشا بن بتاح نوم .

سلامي الى الجيران جميعاً .

لتحيتكم أرسلت هذه الرسالة . سلامي الى أبي بسامي سلامي الى أمي ممه وسلامي
الى أخي بتي وزوجه .

سلامي الى وحب رع . «

(العنوان) : « الى ناناي حم من نبو شذب بن بتاح نوم .

الى أسوان » .

النص السادس : من مجموعة رسائل هرموبوليس (LH 5) :

رسالة من نبوشة باسمه وباسم مكى بنيت

الى تارو وتابي أختيه (٣٢) .

في هذه الرسالة يطلب المرسل ارسال صندوق . ويلح فيها على ضرورة ارسال زيت
الخروع المطلوب مع حروص بن بيت شذب . ويتساءل شاكياً : « كيف حدث أنكم لم ترسلوا
لي رسالة ؟ أنا عضتني أفعى وكدت أموت وأنتم لم ترسلوا لي رسالة لتعرفوا ان كنت
حيّاً أم ميتاً .

لتحيتكم أرسلت هذه الرسالة .

الى تارو من نبوشة بن بتاح نوم الى أوفي . «

النص السابع : من مجموعة رسائل هرموبوليس (LH 7) :

بطاقة من رجل الى أمه (٣٣) .

في هذه البطاقة المختصرة يتوجه رجل الى أمه أثاردمري (وتدعى تحببا أثار دي) طالباً
إليها رعاية أولاده وهي بكلماتها القليلة حافلة بمعانيها الانسانية وتعكس بوضوح
عواطف رب الأسرة واهتمامه بأولاده والعلاقة بين الابن وأمه . وهي على بساطتها عميقة
في تعبيرها عن سمات انسانية في الحياة الأسرية في بلاد الشام في الفترة التي تناولناها في
هذا البحث .

□ نص البطاقة :

« الى أُمي آثار دمري من أخيك أُمي أبعث اليك بسلامي وبأمنيته لك بحياة مديدة .
سلامي الى أخواتي (بناتي) ايسوييري ، زبابو ، كاكبي ، الآن أتوجه اليك ارعي
هؤلاء البنات . سلامي الى فاسارازا (اسم فارسي) والى شبنيت وأولادها والى
بيطامون . سلامي الى هيربووطا وأخته .
لتحييتك أرسلت هذه الرسالة . »
(العنوان) : « الى أختي آثار دي من أخيك أُمي .
ينقل الى أوفي . »

□ الخاتمة :

بعد هذا الاستعراض لجوانب عديدة من الحياة اليومية والأسرية في بلاد الشام خلال
فترات من الألف الأول ق.م قد يمكن لنا أن نستخلص النتيجة التالية :
ان أبعاد الاتصال الحضاري في التاريخ العربي أبعد مدى وأعظم غوراً مما هو متداول
ومألوف في معرفة هذا التاريخ في حدود الزمان والمكان ، وهو ما يستدعي ضرورة الاهتمام
بالدراسات اللغوية والتعمق في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لاستجلاء جوانب الحياة
الانسانية المختلفة .
وبمثل هذه الدراسات يغدو الانسان نفسه وكله مصدراً تاريخياً كاملاً . هذا
الانسان كله بجسمه ومسكنه بلغاته وغذائه وأدواته وبمظاهر عقلياته وتغيراتها ، كل
هذه المواد التي أهملت وأهمل البحث فيها في السابق أضحت أخيراً مادة للدراسة بين أيدي
الباحثين والمؤرخين .
وبهذا الصدد يقول أحد أعلام مدرسة التاريخ الجديد في فرنسا ، بيير نورا : « بينما
يؤدي اتساع التاريخ الى العجز عن التاريخ ، يجري بالمقابل استثمار أكثر دقة للشواهد
والسواكن في التاريخ المشترك . ومن هذه الرؤية يكون التطلع الى البحث التاريخي ،
والى الكتابة التاريخية التي تجدد عندنا وسائل التعرف والاطلاع وتشجذ فينا الرغبة في
المعرفة التي تصنع حاضرننا » (٣٤) .

★ ★ ★

□ العواشي :

- 1 — A. CAQUOT, Leçon Inaugurale, Paris 1972, p. 13.
- 2 — A. E. COWLEY, Aramaic Papyri of the fifth Century B.C. Oxford (1923). المصادر :
E. G. KRAELING, The Brooklyn Museum Aramaic Papyri; New Documents, of the
fifth century B.C. New Haven, (1953).
E. BRESCIANI-M. KAMIL, le lettre aramaiche di Hermopoli, Rome (1966).
- 3 — B. PORTEN, Archives from Elephantine, Berkeley & Los Angeles (1968) p. 264.
B. PORTEN, Aramaic Texts with Translation (1976).

- 4 — P. GRELOT, Documents Arameens d'Egypte (1972), p. 144-168.
- 5 — GRELOT, op. cit. 33 et suiv.
- 6 — PORTEN, Archives ... p. 18-173.
- 6 — (Double) IDEM p. 17, 18, 172-175.
- 7 — GRELOT, Documents ... p. 150.
- H. DONNER - W. ROLLIG = KAI II No. 181 p. 188. : ٨ - انظر نص نقش ميشع ملك مؤاب في :
٩ - انجيل لوقا ١١ : ٧ وما بعد .
- 10 — KAI II, No. 216, 233.
- ١١ - حول المؤامرة على امنمحت الاول انظر :
- E. DRIOTON ET J. VANDIER, L'Egypte, PUF, 1938/1975, p. 251.
- 12 — KAI II, No. 182, 181.
- ١٣ - أشعيا ٢٨ : ٢٤ .
- ١٤ - جورج حداد ، تاريخ الحضارة دمشق ١٩٥١ ص ١١٥ .
- ١٥ - المرجع نفسه .
- ١٦ - انظر الأسطورة في :
TEXTES OUGARITQUES, E. . DuCerf, Paris 1974, 223.
- 17 — A. DUPONT-SOMMER ET J. STARCKY, Les inscriptions araméennes de Sefiré, Paris 1958, p. 4-5.
- 18 — J. DESHAYES, Les Civilisations de l'Orient ancien, Arthaud, Paris 1969, p. 308.
- ١٩ - راجع محمد سعيد القاسمي ، قاموس الصناعات الشامية ، مادة دباس .
- 20 — ARCHIVES ROYALES DE MARI XXII/II (1983) No. 276.
- 21 — ANDRÉ PARROT, Mari, Payot, fig. XXV/2. Paris, (1974).
- 22 — J. DEHAYES, Les Civilisations de l'Orient Ancien, p. 601.
- 23 — J. DEHAYES op. cit. p. 558; voir C. Descamps de Merzenfeld, Inventaire Cimmenté des Ivoires pheniciens, Paris 1954.
- ٢٤ - انظر فوق ، الحواشي ذات الأرقام ٢ ، ٣ ، ٤ .
- ٢٥ - انظر خاصة :
P. GRELOT, op. cit. p. 455.
- 26 — H. DONNER, W. ROLLIG KAI II, No. 270 p. 321.
P. GRELOT, Documents No. 22 p. 139.
- 27 — Op. cit. p. 150.
- 28 — Op. cit. p. 154.
- ٢٩ - ذكر زيت الخروع في هذه الرسالة (بالآرامية T Q M) تشير الى أهمية هذه المادة في الحياة اليومية . انظر
دراستنا في « مجلة الدراسات السامية » .
- H. FARZAT Encore sur le mot TQM, Semitica XVII Paris (1967) p. 77-80,
وفيها وضعنا استعمالات الخروع في الطب المنزلي آنذاك : للسعال ، للضماد وللتقطير في العين . وينقع نباته
وورقه مع نباتات أخرى لاستخدامه في الحمام . وكان يستخدم وقودا للتنوير بشهادة هيرودوت .
- 30 — P. GRELOT, Documents ... p. 160.
- ٣١ - سفر أرميا ، ٤٤ : ١٥ - ٩ .
- 32 — P. GRELOT, Op. cit. p. 163.
- 33 — Op. cit. p. 167.
- 34 — DE CERTEAU, L'écriture de l'Histoire Gallimard, Paris (1975).

اللغة العربية بين الأصالة والاعجاز والحداثة

القسم الأول : الأصالة والفصاحة

- ١ - لغة واصطلاح
- ٢ - أفصح اللغات
- ٣ - أطوار ثلاثة
- ٤ - فساد اللسان العربي

القسم الثاني : خصائص واعجاز

- ١ - الاعجاز اللغوي
- ٢ - المنهج اللغوي العربي
- ٣ - منهج الترميز في اللغة
- ٤ - التربية اللغوية عند الجاحظ
- ٥ - ابن خلدون واللسان العربي

القسم الثالث : موقف الحداثة من الفصحى والعامية

- ١ - المصلحون واللغويون
- ٢ - تمصير اللغة العربية
- ٣ - الرافعي وأحمد لطفى السيد
- ٤ - المجمع العلمي العربي
- ٥ - العلايلي والأرسوزي وفك